

## الموازنة بين النشأة والتطور

عرف أدبنا فن (الموازنة) منذ نشأته الأولى إذ كانت معظم جلسات (عكاظ) قائمة على الموازنة بين بيتين أو مقطوعتين من الشعر لشاعرين أدركا عصرأ أدبياً واحداً في أغلب الأحيان وقد يشتركان في بيئة واحدة فيحكم لأحدهما بالجودة والإجادة دون الآخر.

ثم جاء الأصمعي (-٢١٦هـ) وأضاف معيار (الفحولة) الى معايير الموازنة بين الشعراء، وقد شكّلت هذه الخطوة أثراً متقدماً في النقد الأدبي ولكن أحكامه فيها كانت انطباعية مبتسرة<sup>(١)</sup> على أن هذه العملية النقدية لم تكن تخضع الى قواعد مدونة وإنما كانت عناية القائمين بها تنصب على اللفظ المفرد والمعنى الجزئي ولا تخلو من الانفعال والتأثر العاطفي<sup>(٢)</sup>.

ثم تطورت هذه العملية شيئاً فشيئاً - شأنها في ذلك شأن النقد بعامة - حتى أصبحت مقياساً نقدياً يستند الى اسس فنية وقواعد بلاغية وذوقية أوردتها الأمدى (-٣٧٠هـ) وهو يوازن بين شاعرين في ميدان الإجادة والابداع فساهم في إثراء المقياس البياني في النقد<sup>(٣)</sup>.

وقد اتخذت الموازنة تسمية أخرى بفعل الخصومات التي بلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري فاتخذت شكل الوساطة حينما سعى القاضي الجرجاني (-٣٩٢هـ) الى : (الوساطة بين المتنبي وخصومه) إذ اعتمد على أسس فنية تقوم على تقسيم الألفاظ على رتب المعاني فما يقال في الغزل لا يقال في الفخر وكذا في المديح والوعيد بل يجب مراعاة ترتيب الكلام واعطاؤه حقه من الصياغة<sup>(٤)</sup> ولا عجب - بعد ذلك - أن يستمر هذا المقياس الى عصرنا ها، فنرى من المعاصرين من وازن بين شوقي وحافظ ومطران<sup>(٥)</sup>.

وليس ذلك فحسب بل أن هناك من المعاصرين من وازن بين شاعرين اختلفا في العصر كل الاختلاف كتلك التي جرت بين المتنبي وشوقي<sup>(٦)</sup> او تلك التي جرت بين البحتري وشوقي معتبرا وحدة الموضوع بينهما<sup>(٧)</sup> .

ولاشك في أن الموازنة بين شاعرين اختلفا في الزمان مسألة فيها نظر سنتبينه لاحقاً.

وخلاصة القول أن الموازنة والوساطة كلاهما يمثل مقياسا نقديا قائما على أسس فنية يعتمدها الناقد عند إجراءهما وهذا يعني أن اختلاف الأسماء من موازنة الى وساطة لا يعني بالضرورة اختلاف المفهوم بينهما كما سنلاحظ ذلك في ثنايا الجانب التطبيقي من البحث .

## الأسس الفنية للموازنة :

اختلفت عوامل الإجابة في صناعة الشعر بين النقاد ونتيجة لهذا الاختلاف فقد تبلورت مجموعة من الأسس الفنية التي تساعد الناقد على ممارسة نقدية واعية ، ومن ثم صياغة حكم نقدي موضوعي - فيما بعد - ولبلوغ ذلك عليه إذن " أن ينظر ما أجمع عليه الأئمة في علم الشعر من تفضيل بعض الشعراء على بعض، فإن عرفت علة ذلك فقد علمت ، وإن لم تعرفها فقد جهلت ، وذلك بأن تتأمل شعر أوس بن حجر والنابغة الجعدي فتتظن من أين فضلوا أوساً .... فإن علمت من ذلك ما علموه ولاح لك الطريق التي بها قدموا من قدموا وأخروا من أخروه ، فثق حينئذ بنفسك واحكم بسمع حكمتك.... فإن قلت: انه قد انتهى بك التأمل الى علم ما علموه لم يقبل ذلك منك حتى تذكر العلل والأسباب ((<sup>(٨)</sup>). وهذا يعني أن الأمدي يرى أن مقياس الموازنة هو أن يأخذ الناقد بالعلل والأسباب التي اجمع عليها أئمة علم الشعر والذين يعني بهم (النقاد) ومن ثم تفضيل بعض الشعراء على بعض ولاشك في أن عملية الموازنة هي مهمة شاقة إذ أن الناقد فيها يكون أمام شاعرين أو أكثر لكل منهم نتاجه الخاص به، وهو حينئذ مطالب إذن بالأحيف أو يسرف إذ (( ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف ، أو تخرج في بابيه الى الإسراف بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفتك، فتتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاه دأ لك اذا أنكرت))<sup>(٩)</sup> . فالقاضي الجرجاني هنا يقر بالعدل والانصاف أي أنه يريد من الناقد أن يتصف بالموضوعية وذلك بأن ينصف ولا يسرف وتلك صفة حرص النقاد على توافرها لأنها تشكل عماد العملية النقدية السليمة

وينبغي - بعد ذلك - أن يكون الحكم دقيقاً ، وهذه الدقة في الحكم تستلزم من الناقد الموازن أن يقيم الاستسلام للحجة عند توفر الدليل العقلي أو النقلی

## نماذج تطبيقية من الموازنة :

يمكن أن تقوم الموازنة على نمطين هما:

الأول/ الموازنة بين شاعرين يجمعهما عصر أدبي واحد ، وقد إمتاز أحدهما عن الآخر بالمهارة الفنية في صياغة العبارة الشعرية بما يمتلك من أدوات العمل الشعري إذ أن جودة صناعة الشعر إنما تقوم على أربعة أشياء هي : (( جودة الآلة، وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف والانتهاج الى تمام الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها..... ))<sup>(١٠)</sup>.

ومن ثم تبدأ المفاضلة لاسيما اذا عرفنا أن العرب إنما كانت (( تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلّم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأعزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبيته..... ))<sup>(١١)</sup>.

ومن النماذج التطبيقية على هذا النمط ما قام به الأمدي (-٣٧٠هـ) من موازنة بين أبي تمام والبحثري في (افتتاح\*) قصائدهما، فيورد افتتاح أبي تمام:

ما في وقوفك ساعة من باسٍ      نقضي ذمام الأربع الأدراس<sup>(١٢)</sup>  
يلق قائلًا: هذا ابتداء جيد بالغ.

ثم يورد افتتاح البحتري

ما على الركب من وقوف الركاب      في مغاني الصبا ورسم التصابي<sup>(١٣)</sup>  
وافتاحه الآخر:

ذاك وادي الأراك فأحبس قليلاً      مقصراً من ملامتي او مُطيلاً<sup>(١٤)</sup>

فيقول الأمدي : ((وهذان ابتداءان في غاية الجودة ... فهذا ما ابتداء به من ذكر الوقوف وجعلهما فيه متكافئين))<sup>(١٥)</sup>.

والأمدي هنا لم يذكر سبب هذه الجودة في ابتداء الشعارين ولكن يبدو لي أنه حكم لهما بالجودة لأنهما سارا على منهج القصيدة القديمة لاسيما وأنه يعد من أنصار المدرسة الشكلية كما سيتبين ذلك لاحقاً.

وقد تتطلب الموازنة ذكر مساويء الشعارين لا محاسنهما فقط كأن يذكر الناقد الموازن الغلط الذي وقع فيه الشاعر وعدم إصابة المعنى كما فعل الأمدي حينما ذكر قول أبي تمام:

ظعنوا فكان بكايَ حَوْلًا بَعْدَهُم      ثم ارعويت وذاك حكم البيد

أجدر بجمرة لوعة اطفأؤها      بالدمع أن تزداد طول وقد<sup>(١٦)</sup>

ثم علق قائلاً : (( وهذا خلاف ما عليه العر ب: وضد ما يعرف من معانيها لأن المعلوم من شأن الدمع أن يطفئ الغليل ، ويبرد حرارة الحزن، وينفي شدة الوجد، ويعقب الراحة وهو في اشعارهم كثير موجود، ينحى به هذا النحو في المعنى))<sup>(١٧)</sup>. وكذلك فعل مع البحثري في قوله:

ذَنْبٌ كَمَا سَحَبَ الرَّدَاءُ، يَذُبُّ عَنِ      عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسْبِلِ<sup>(١٨)</sup>

إذ علق عليه الأمدي قائلاً : (( هذا خطأ من الوصف ، لأن ذنب الفوس – اذا مسّ الأرض – كان عيباً ، فكيف اذا سحبه ، وإنما الممدوح من الأذنان ما قرب من الأرض ولم يمسه<sup>(١٩)</sup>).

لكن الأمدي في موازنته لم يكن سائراً على النهج النقدي الذي اختطه لنفسه دائماً<sup>(٢٠)</sup> إذ كان كثيراً ما يعلن ولاءه لمدرسة الشكل الفني وبذلك يكون قد وقف ضمناً في صف أنصار البحثري وإن لم يشأ أن يعلن ذلك صراحة أحياناً<sup>(٢١)</sup>، أو قد يعلن ذلك صراحة في أحيان أخرى<sup>(٢٢)</sup>

وهذا ما قد يفسد الحكم النقدي الصادر من الناقد الموازن مما قد يدفعه الى أن يتجنى - الى حد ما - على أحد الشعراء دون الآخر وذلك لميله للآخر ومفاضلته إياه دون غيره.

ولكن يكفي الأمدي فخرا أنه : (( ارتفع عن سذاجة النقد القائم على المفاضلة بوحى من (الطبيعة) وحدها دون تعليل واضح))<sup>(٢٣)</sup>.

ثم جاءت الوساطة بين الشعراء كمقياس للموازنة بينهم اذ سعى القاضي الجرجاني (-٣٩٢هـ) الى التوسط بين الشعراء أبي نؤاس (-١٩٨هـ) وأبي تمام (-٢٣١هـ) وابن المعتز (-٢٩٦هـ) قائلا: (( يقول ابن المعتز:

ما زال يلطمُ خَدَّ الأرضِ وابلُها حتى وَقَّتْ خَدَّها الغدرانِ والخُضْرُ<sup>(٢٤)</sup>

وشتان ما بين هذا اللطم ولطم أبي تمام في قوله:

ملطومة بالورد أطلق دونها في الخلق فهو مع المنون محكم<sup>(٢٥)</sup>

وإنما نازع أبا نؤاس قوله:

تبكي فتذري الدرَّ من نرجس وتلظنم الورد دبَّعْنا<sup>(٢٦)</sup>

فسبق ابو نؤاس بفضل التقدم والاحسان وحصل هو على نقص السرقة والتقصير ، لكنه احسن في بقية البيت فجبر بعض ذلك النقص))<sup>(٢٧)</sup>.

وقد اعتمد القاضي الجرجاني عامل السبق الزمني في الحكم لأبي نؤاس في حين أنه لم يذكره ضمن أسس المفاضلة عند العرب<sup>(٢٨)</sup> . يتبين من ذلك أن الوساطة

لم تبعد في مفهومها التطبيقي عن الموازنة وهي أيضا كما الموازنة قد يخرج فيها الناقد عن الأسس النقدية المعتمدة الى مقياس قديم وعامل السبق الزمني - كما رأينا

وأرى أن بيت أبي نؤاس كان جديرا بالإجادة من شعر صاحب بي لتجانس الصورة فيه فالدموع درّ يتساقط من عين كالنرجس في جمالها على خدّ من الورد تلطمه بأصابع كأنها العنّاب في حمرة رؤوسها ورقتها....

فضلا عن ذلك أن القاضي الجرجاني لم يلتزم عامل السبق الزمني عندما توسّط بين أبي تمام(-٢٣١هـ) والمنتبي(-٣٥٤هـ) إذ يقول في قول أبي تمام:

(( همي معلّقة عليك رقابها مغلولة: إن الوفاء أسار<sup>(٢٩)</sup> ))

ألّمّ به أبو الطيب فقال وأحسن:

وَقَيْدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدُ<sup>(٣٠)</sup>

والقاضي الجرجاني - هنا - لم يبسط القول بما ألّمّ المنتبي به وما أحسن فيه....

ويبدو لي أن سبب الإجادة أن صورة القيد أبلغ في تجسيد معنى الإحسان عند المنتبي من قيد الوفاء عند أبي تمام.

الثاني/ هذا النمط يعنى بالموازنة بين شاعرين اختلفا في الزمان والمكان ولا يجمعهما إلا موضوع القصيدة أو قل غرضها.

كتلك الموازونات التي قامت بين الحصري (-٤٨٨هـ) وشوقي (-١٩٣٢م) أو بين البحتري (-٢٨٤هـ) وشوقي (-١٩٣٢م) أو بين البوصيري (-٦٩٥هـ) وشوقي<sup>(٣١)</sup> أو كتلك الموازنة التي قامت بين المنتبي (-٣٥٤هـ) وشوقي<sup>(٣٢)</sup>.

ولنأخذ أنموذجا من تلك الموازونات كتلك التي أقيمت بين سينية البح تري وسينية شوقي، إذ يقول البحتري في مطلعها:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبْسٍ<sup>(٣٣)</sup>

وأما شوقي فيقول في مطلع سينيته:

إختلاف النهارِ والليل يُنسي

فأذكر لي الصِّبا وأيام أُني<sup>(٣٤)</sup>

ثم يوازن الناقد بين المطلعين فيقول: (( ومطلع البحري منه ضَعْفٌ وانحلال،  
وليس بقاطع الدلالة على الإباء ، وخير منه مطلع شوقي وإن كنا لا ندري بمن  
يستجد، وقد نسي أيام صباه))<sup>(٣٥)</sup>.

ولا أعلم كيف فضّل الناقد مطلع شوقي ولمّ؟ طالما هو لا يعرف بمن يستجد  
شوقي!! ألا يكفي البحري فخراً أن نفسه تترفع عن كل جبان دنيءٍ ولا نجد مثل  
هذا الإباء عند شوقي الذي لا يتذكر أيام صباه وأنسه لعله إختلاف الليل والنهار لا  
غير!! لاسيما وأن هناك من الدارسين من عدّ معارضات شوقي ومنها السينية بأن  
كلماتها نافرة والقوافي مغتصبة<sup>(٣٦)</sup>.

ومن ثم فإن الناقد - نفسه - يبرر ضَعْفَ مقدمة البحري في إختلاف ظروف  
البحري عن ظروف شوقي<sup>(٣٧)</sup>.

فأين تكمن الموازنة إذن وهو يجد عذراً لضَعْفَ الشاعر!! وقد فاتته أن يستنكر  
ما قاله في البدء من أن (( الشاعر إنما يؤدي (رسالته) الى جيل خاص في قطر  
خاص، ومن التحكم أن تطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك ويتذوقها  
بوجدانك، مع أن بينك وبينه مئات القرون وهو لم يعيش معك ولا لك، وإنما خضع  
في شعوره لغير ما تخضع له من ظروف الزمان والمكان))<sup>(٣٨)</sup>.

ولعل هذا الاضطراب في الحكم النقدي يعود الى أن - ناقدنا - كان شوقي  
الهوى منذ الوهلة الأولى، فهو ما انفكّ يتغنّى بشعر شوقي لأنه يعبر عن (مصر) -  
بلد الناقد - حتى أنه ليجد بفتنة مصر عذراً لفرعونها في ضلالته<sup>(٣٩)</sup>. وهذا يعني  
ابتعاد الناقد عن الموضوعية وغلبت الميل النفسي عند تشكيل رؤيته النقدية .

ولنأخذ ناقدًا آخر وازن بين المتنبي وشوقي متخذًا من الألفاظ والمعاني وكذا  
الموضوعات مادة للموازنة إذ يورد أبيات للمتنبي فيها عيوب لفضلية منها قوله  
متغزلاً:

أشاروا بتسليم فُجْدنا بأنفس

تسيلُ من الأماق والسَّم أدمع<sup>(٤٠)</sup>

فيقول الناقد: ((يريد بالسم: الاسم (لغة فيه) فأنظر المعنى الجميل كيف يفسده اللفظ القبيح؟ وأين هذا من قول شوقي:

أنادي الرسم، لو ملك الجوابا! وأجزيه بدمعي ، لو أثابا!))<sup>(٤١)</sup>

وأنا أسأل الناقد هنا أين هو اللفظ القبيح؟ والسم لغة في الاسم كما يقول هو! وما القبيح من ذلك بل على العكس أراه منتهى الانسجام مع تمام المعنى فإن كانت دموعنا تجري فهي أنفسنا نجود بها لفراق أحببنا والاسم أدمع!! .

وكان الأجدر للناقد - وهو يتحدث عن العيوب اللفظية عند المتنبي - أن يوازن بيت المتنبي - هذا - مع بيت فيه عيب لفظي لشوقي حتى تكون الموازنة بين المعيب من ألفاظهما معاً، ليس ذلك فحسب بل إنه حين أورد هذه العيوب فإنه قد أحصاها إحصاءً دقيقاً لكنه حينما انتقل الى ذكر الحسن منها أوجز وأحال النظر الى ديوان الشاعر<sup>(٤٢)</sup> وكذلك هو حينما يتكلم عن المتنبي ذكر حكمه النقدي مقدماً دون أن يدع القاريء يستنبطه! إذ قال: ((فأما المتنبي فلم يوفق - إلا قليلاً - في اختيار كلماته المفردة وكلامه المركب))<sup>(٤٣)</sup>.

لكننا نراه عندما انتقل بكلامه عن شوقي ذكر الحكم النقدي مقدماً - ايضاً - لكن لصالح شوقي دون أن يدع القاريء يقرر ذلك إذ قال: ((وأما شوقي فكلماته منتقاة، وألفاظه مختارة، يضع الكلمة اللائقة في الموضع اللائق...))<sup>(٤٤)</sup>.

وبعد فإن وضع الأحكام النقدية المسبقة أمر يرفضه العقل ويأباه الذوق الفني فحكم الموازنة هو أن تعطي للشاعر ما له وما عليه دون أن تتدخل في تجميل صورته بأي شكل من الأشكال بل يجب عليك أن تدع ذلك للقاريء ليكون الحكم - بعدها - موضوعياً خالياً من الهوى والتعسف.

على أنني أرى أن في هذا النمط من الموازنة غير مقبول عقلاً ولا ذوقاً لأن التباين في الزمن والبيئة من شأنه أن يحدث تبايناً في الرؤى والأفكار ، لاسيما عند من

يرى أن الشاعر إنما هو نتاج بيئته ..... فكيف اذا كان هذا التباين يمتد لقرون من  
الزمن.....